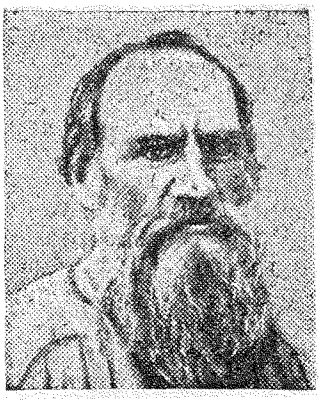

تولستوي وتصوير العالم الداخلي للإنسان *

بقلم الدكتورة حياة شرارة

كان الكتاب السنتمنتاليون والرومانتيكيون اول من اتجه نحو تصوير العالم الداخلي للانسان واعطاء اهمية كبيرة لمشاعره وعواطفه وافكاره . دعا الرومانتيكيون الى الحرية الشخصية وحرية الابداع الفردي والى الاهتمام بمشاعر الفرد ودفائن نفسه . وكما قال الناقد الروسي بيلنسكي « ان الرومانتيكية بمعناها الدقيق هي العالم الداخلي للانسان والحياة الوجدانية الخفية » . (١)

اغنى الكتاب الروس الواقعيون اسلاف تولستوي تصوير حياة الانسان الداخلية بالتفاتهم الى العرى القائمة بين الانسان والوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه والتأثير المتبادل بينهما والخيوط المتشابكة التي تجمعهما . وقد كان اهتمامهم في استبطان العالم الداخلي للانسان متفاوتا . فبوشكين لم يتوغل في استكشاف اسرار النفس البشرية كما فعل تولستوي فيما بعد . فقد انتج بوشكين الوانا ادبية جديدة في الادب الروسي كالقصة والرواية وقد وضع نصب عينيه تطوير الاسلوب القصصي والاهتمام بالشخصيات ومحاور القصص وحبكتها وغيرها من القضايا الادبية . اما ليرمنتوف . فان تصوير النفس البشرية يستحوذ على اهتمامه الرئيسي وهو يعالجها في الاطار الاجتماعي ويعالج تفاعلها وارتباطها به . ويظهر ليرمنتوف بتشديد قبضة المجتمع على الانسان وقتله لطاقاته وقابلياته من خلال ابراز تصرفات البطل واعماله وآماله واوجاعه النفسية وهذا ما نلمسه في رواية « بطل عصرنا » . وعلى الرغم من تقصي تورجينف لحياة البطل الداخلية فان اهتمامه الرئيسي ينصب على اظهار التغيرات الاجتماعية والافكار والمذاهب الجديدة التي اخذت تظهر في المجتمع . وقد انتقد طريقة تولستوي في تحليل نفسية البطل واخذ عليه ميله الى الاسهاب احيانا .

ان اسلوب تولستوي في تقصي الحياة الداخلية للانسان اقرب الى ليرمنتوف منه الى بوشكين وتورجينف . فكلاهما يولي اهتمامه لتصوير عالم الانسان الباطني اكثر من تصوير البيئة والوسط .

لم يكن تولستوي اول كاتب يتوجه نحو تحليل العالم الداخلي لابطاله فقد سبقه في هذا المضمار كتاب روس واجانب معروفون مثل ليرمنتوف وتورجينف ومستاندارد وستيرن وديكنز وغيرهم . بيد ان تولستوي اغنى تحليل العالم الداخلي للانسان باضافات فنية جديدة. والناقد الذي تعود له فضيلة السبق في تحديد طريقة تولستوي التحليلية هو تشرنيشفسكي ، فقد سماها « ديالكتيكية النفس » وهي تختلف عن غيرها بان « تولستوي لا يقتصر على تصوير نتائج سير العملية السيكولوجية وانما يرسم بمهارة فائقة خط مسار العملية النفسية كلها ويلتقط اللحظات العابرة في الحياة الداخلية التي تتعاقب واحدة بعد واحدة في سرعة فائقة وتباين متواصل » . (٢) لم يكن يستطيع تولستوي الغوص في اعماق النفس البشرية وكشف اسرارها لولا معرفة شاملة دقيقة لتصرفات الانسان والبواعث التي تحركها والاتجاهات التي تسلكها افكاره ومشاعره والتقلبات التي تطرأ عليها وتحولها الدائم المستمر وقد تسنى لتولستوي فهم تحركات النفس البشرية بعد تأمله سلوك الناس الذين حوله واولى عناية فائقة لفهم ذاته وتحليل افكاره ومشاعره ومراقبة تغيراتها واعطاء تفسيرات لها . وقد كتب في يومياته في ١٢ أيار ١٨٥٧ يقول « انني اهتم بتأمل نفسي للغاية » .

لا يقل فهم تولستوي للواقع الروسي عن معرفته للانسان ، فقد حظيت الحياة الروسية ومشاكلها وتاريخها البعيد والقريب باهتمامه ودراسته واستطاع الالمام بها من كل جوانبها وابعادها . ولا غرابة ان يثير نفاذ تولستوي للواقع الروسي اعجاب دوستويفسكي واطراءه ، فقد كتب في احدى رسائله يقول : لقد خرجت بنتيجة قاطعة وهي ان الاديب الفنان يجب ان يعرف الواقع الذي يصوره (الماضي والحاضر) في غاية الدقة ويلمع في هذا المجال عندنا على ما اعتقد اسم الكونت ليف تولستوي فقط » (٣) .

كيف يصور تولستوي الانسان وما يحيطه ؟ وما هو التجديد الذي ادخله في تصويره ؟ ينظر تولستوي الى الانسان كمخلوق متغير متطور ابدا فهو في صيرورة مستمرة وتحرك دائم ، ولذلك كان من الخطأ رؤية صفات الانسان وخصاله كشيء ثابت جامد فشخصيته معرضة للتغيير تحت تأثر الوسط الاجتماعي من جهة وتفكيره وادراكه من جهة اخرى . ويقول في يومياته في ٣ شباط ١٨٩٨ « من الخطأ المتعارف عليه تقسيم الناس الى طيبين واشرار اغبياء واذكياء ، ان الانسان في جريان مستمر ويحمل في ذاته جميع الامكانيات ، فقد يكون غبيا ويصبح ذكيا ، ويكون شريرا ويقدو طيبا والعكس بالعكس . وهنا تكمن عظمة الانسان » .

---

* القيت هذه المحاضرة في جمعية الكتاب والمؤلفين : العراقيين .

١ ـ ف. بيلنسكي . المؤلفات المختارة . موسكو ـ ١٩٤٨ ـ ج٣ ـ ص ٢١٧ .

٢ ـ ن تشوينشفسكي . المؤلفات الكاملة . موسكو ـ ١٩٤٧ ـ ج٣ ـ ص ٤٢٣ .

٣ ـ ف. دوستويفسكي . الرسائل ١٨٧٢ ـ ١٨٧٧ ـ موسكو ـ لينغراد ـ ١٩٣٤ ـ ص ٢٠٦ .

لقيت آراء تولستوي في الخلق الفني انعكاسا لهـا في رواياتـه واعماله الادبية الاخرى . اذ كان يحافظ دائما على رسم الخط الـذي يسير فيه تطور الشخصية الفنية والعثرات التـي تعترضها . لقـد اتسمت كتاباته الاولى بالاسهاب في كشف مشاعر البطل وخواطره التي تتخذ احيانا طابع الاطناب . وقد عاب عليـه النقاد المعاصرون هـذه الناحية واعتبروها اداة تضعف قيمة خلقه الفني . فقـد قال الكاتب اكساكوف عن قصة « الطفولة والصبا » « ان الوصف في بعض الاحيان غير محتمل ويصل الى حـد التطويل المصطنع » . (٤) وقد افـاد تولستوي من ملاحظات النقاد وانتقاداتهم وحاول الاخذ بهـا وتجنب الاطالة كما حاول اسباغ روح الاعتدال على اسلوبه . فقد كتب فـي يومياته عام ١٨٥٢ يقول : « لقد شغفت في البدء بالتعميم ثم بالتطويل ، واذا لم اجد حدا وسطا ، فانني ادرك اهمية ذلك على الاقل واتمنى ان اجده » . وقد استطاع تولستوي التخلص من الاسهاب فـي وصف مشاعر البطل وافكاره في اعماله الادبية التي اعقبت الفترة المبكرة من انتاجه الفني « كالحرب والسـلام » و« انـا كارنينا » و« البعث » وغيرهـا .

وسأنتقل الآن الى تحليل بعض الادوات الفنية التـي يستخدمها تولستوي لكشف شخصية البطل وافكاره كالمنولوج الداخلـي والصورة الفنية والاحلام والطبيعة .

المنولوج الداخلي عبارة عن مناجاة البطل لنفسه والتفكير بمختلف الاحداث التي تقع في حياته وهـو يحاول تحليلها وادراك دلالتهـا . ويستخدم البطل المنولوج الداخلي لكشف خبايا نفسه والتحدث عنهـا بصراحة دون مواربة او تغطية . ولذلك كان المنولوج من الوسائل الفنية الهامة في كشف حقيقة البطل . انه يسكب ما بداخله من افكار ومشاعر بحرية ويعرضها بصدق تام ، كاشفا كل البواعث والخواطر والمحفزات التي تكمن وراءها . ولما كان المنولوج الداخلي ممتازا عـن الحديث او الكلام العادي بالصدق والامانة فقد اصبح اداة حيوية فـي استبطان العالم الداخلي للانسان .

يختلف تولستوي عن بقيـة الكتاب باستعماله الواسع للمنولـوج الداخلي في رواياته . انه يلجأ اليه ليعكس افكار ابطاله الذين يعيشون حياة فكرية غنية وحياة عاطفية جياشة . فاستخدامه مرتبط باهميـة البطل ودوره في الرواية . وقد اشارت الناقدة الروسية مايتلوفا الـى ابداع تولستوي في هذا المضمار بقولها : « ينحصر ابـداع تولستوي باستخدامه الحوار الداخلي استخداما واسعا بدرجة اكبر بكثير مـن اسلافه وهو اول من عكس الحوار الداخلي بشكله الطبيعي بكل ما فيه من اندفاع وتوقف واغلاط » . (٥)

لفت ف. ستاسوف الانظار الى الخصائص التـي ينفرد بهـا المنولوج الداخلي عند تولستوي في اختلافه عمن سبقه في الادب يقول : « يبدو لي ان ليس هناك اصعب من المنولوجات في احاديث الشخصيات الروائية . والادباء يختلفون عادة حول هذه النقطة ويزورونها اكثر مما يزورون اي جزء آخر من كتاباتهم وانهم يلفقون بصورة ادبية متفق عليها ويمكن القول عنها بانها اكاديمية . اننا لا نعثر عند هؤلاء الكتاب علـى الصدق والعفوية والاغلاط والجمل المتقطعة وعدم اكمال الجملة والطفرات، فان جميع الكتاب بمن فيهم تورجينف ودوستويفسكي وجوجول وبوشكين وجريبايدوف يكتبون منولوجات صحيحة ومتتابعة ومصقولة ومنتقـاة ولكن الانسان لا يفكر بينه وبين نفسه بهذا الشكل وقد وجدت لحد الآن شخصا واحدا يمكن ان يستثنى من هذا السرب وهـو الكونت ليف تولستوي . انه الوحيد الذي كتب فـي رواياته ومسرحياته منولوجات حقيقية تشوبها الاخطاء العفوية والانقطاعات والوثبات » . (٦)

اغنى تولستوي المنولوج الداخلي بمحتوى جديد ووسع مهمتـه ودوره في نسيج الرواية واعطاه شكلا جديدا لم يكن موجودا من قبل . فهو يسرده بشكله الطبيعي المتداعي ويسبغ عليه من العفوية والتلقائية ما يجعله مطابقا لتفكير الانسان الحقيقي . ان هذا التجديد الذي ادخله تولستوي على المنولوج الداخلي والصبغة الواقعية التي اضفاها عليـه لا يعنيان ان المنولوج الداخلي هو ابتكار فني ابدعـه تولستوي . ان المنولوج الداخلي كان معروفا قبل تولستوي كاحدى الادوات الفنيـة المستخدمة في الادب لغرض تقصي مشاعر البطل سواء كان ذلك فـي الادب الروسي او العالمي . ولكن ابداع تولستوي يتعلق بشكل ومحتوى المنولوج ، انه عند ستندال مثلا يتكون من الافكار الجاهزة والنتائـج المنطقية التي توصل اليها البطل ، فستندال لا يروي حديث البطل منذ بدء تكوينه وانبثاقه وانسيابه ، بل يأخذ المرحلة النهائية والاخيرة منـه في شكله الناضج .

لا يقتصر المنولوج الداخلي على عكس الحالة النفسية للبطل ، بل يتجاوزها الى ابعد من ذلك . فالمنولوج الداخلي يغدو اداة لكشف تطور البطل الخلقي واصلاح ذاته وتبيان حصيلة جهوده وادراكه الجديـد للامور وخططه ومشاريعه للمستقبل والتحولات التي طرأت عليه ومراحل تطوره . وبكلمة اخرى ان حياة البطل كلها تجـد تعبيرا لهـا فـي المنولوجـات .

يمكن ان ينبثق المنولوج في اية لحظة من حياة البطل ، سواء كان ذلك في ساعات الراحة او القلق او الاثارة او التمتع . ولكن كثيرا مـا يستغرق البطل في الحديث مع نفسه في الاوقات الحرجة من حياتـه عندما تواجهه مواقف معقدة تحتاج الى تمحيص والى حل حكيم موزون، فعندها يفكر في افضل السبل لبلوغ ذلك والخروج من المصاعب التـي تعترضه وكيفية تذليلها ، ولذلك نراه يقابل ويحلـل مختلف وجـوه القضية ويقلبها من جوانبها المختلفة مستفيدا من الخبر والاستنتاجات التي كسبها ابان حياته السابقة .

وسع تولستوي اطار المنولوج الداخلي واكسبه آفاقا ابعد ، فلـم يعد المنولوج الداخلي مقتصرا على الابطال الرئيسيين بل تعداه الـى الابطال الثانويين ايضا لان تولستوي ينطلق من الواقع الحي ذاته الذي يرينا ان كل انسان بمختلف شؤونه يتأمل الاحداث التي تمر بـه . ان الابطال الرئيسيين ينغمرون اكثر في ذواتهم وخواطرهم نظـرا لنموهم الفكري واغتناء عالمهم الداخلي ونضجه ولذلك نلاحظ وفـرة الحديث الصامت عند اندريـه بولكونسكي وبير بيزوخوف في روايـة « الحرب والسلام » وعند ليفين وآنا كارنينا في رواية « انا كارنينا » وعنـد نيخلودوف في رواية « البعث » وغيرهم من الابطال الرئيسيين .

تنقسم منولوجات كل بطل حسب طبيعة تفكيره واماله ومطامحه ، فالمنولوجات لا تحمل صفة العموم والشمول بـل تحمل الطابع الفردي لكل بطل وهي لذلك تؤدي مهمة الاثارة لشخصية البطل والقاء ظـلال عليها وابراز الميزات الخاصة بها ، فتكثر عنـد اندريـه بولكونسكي منولوجات المناقشة الفكريـة والمنطقية المتسلسلة ويمتاز بوضوح التفكير ودقته وتظهر منولوجات كارنين بروده ومنافشته للامور بهدوء وانطلاقـا من قواعد ثابتة يتبعها في حياته ، وعلى العكس مـن ذلـك منولوجات آنا كارنينا تمتاز بالصراع والانفعال والتوتر والغضب بينما نلمس فـي منولوجات ستيفا ابلونسكي اللامبالاة وعدم الجدية والطيش ، فشعاره « عش ليومك » .

يستغرق البطل في الحديث مع نفسه عندما يكون عـلى اعتاب مرحلة جديدة من حياته يحاول تبين ابعادها وتأملها والتعود عليها وفقه كنهها ، ولهذا السبب يطرح مجموعة من الاسئلة التي تحتاج الى اجابة

---

٤ ـ مجموعـة مقالات حول مؤلفات تولستوي . القسـم الاول ـ موسكو ـ ١٩٠٣ ـ ص ٥٦ .

٥ ـ ت. ماتيلوفا . الرواية الاجنبية اليوم ـ موسكو ـ ١٩٦٦ ـ ص ٢٧٨ .

٦ ـ ليف تولستوي و ف. ستاسوف . المراسلات ١٨٧٨ ـ ١٩٠٦ ـ لينينغراد ـ ١٩٢٩ ـ ص ٢٦٥ .

وكثيرا من علامات التعجب والاستيضاحات . ففي رواية « الحرب والسلام » تحاول ناتاشا بعد خطبة اندريه بولكونسكي لها ان تبصر معالم حياتها المقبلة وتكاد لا تصدق انها ستصبح زوجة لاندريه ، انه حلم جميل لا حقيقة واقعة ، وتحدث ناتاشا نفسها قائلة « احقا انا تلك الصبية الطفلة كما يسمونني ، احقا سأكون من اللحظة الحاضرة زوجة على قدم المساواة لهذا الانسان الغريب الذكي اللطيف الذي يحترمه والدي ؟ اصحيح ان هذا واقع وحقيقة ؟ وان عليّ ان لا امزح بعد اليوم مع الحياة ؟ لقد غدوت الان كبيرة وعليّ الان مسؤولية في كل كلمة انطق بها ؟ » ونلاحظ ناتاشا تكرر كلمة « الآن » مؤكدة لنفسها بدء حياة جديدة لا تعرفها مفعمة بالغيبيات وانها صارت فتاة ناضجة وعليها ان تتحمل المسؤولية وتواجه المشاكل واعباء الحياة الزوجية .

بخلاف رواية « الحرب والسلام » يغلب التوتر والانفعال على منولوجات « آنا كارنينا » انها تهم في اداء الجو القلق المضطرب الذي يخيم على الرواية والوضع التراجيدي الذي يعيشه الكثير من ابطالها . وهي اقل عدداً من منولوجات « الحرب والسلام » واكثر تركيزا ، وتقوم ايضا بدور تحديد الصفات الفردية للبطل وابراز خصائصه الذاتية كما في « الحرب والسلام » . ويبلغ التوتر اقصاه في منولوجات بطلة الرواية فتتخذ طابعا محموم النبرة حادا او تسودها الحيرة والارتباك والقلق ولا سيما في القسم الاخير من الرواية . اذ يتجسم امام آنا كارنينا المستقبل الرهيب الذي ينتظرها فان حبيبها فرونسكي لن يبقى معها وسوف يتركها في يوم ما وحيدة تتجرع غصص المرارة وتندب حظها التعس ، ولم تكن لتحتمل مثل هذا المصير البائس ، ولذا قررت المحافظة على فرونسكي مهما كان الثمن . وتنعكس في المنولوج الاخير حالة آنا النفسية المضطربة وافكارها المحمومة وهياجها وعذابها القاتل فهي تركب العربة دون ان تقرر الى اين تذهب عندما كان فرونسكي عند والدته لا يعير اي اهتمام للوعتها وآلامها المستعرة . ان محور تفكيرها يدور حول فرونسكي ولا تستطيع التركيز على شيء آخر عداه . وحتى افكارها حوله متضاربة متناقضة مشتتة تفقد المنطق والترابط فيما بينها . فنسمعها تقول « سوف اتوسل اليه ان يصفح عني وساخضع له واعترف اني مذنبة امامه ، لماذا لا استطيع العيش بدونه ؟ » وقبل الاجابة على هذا السؤال اخذت تقرأ اليافطات وتتأرجح تفكيرها بين فرونسكي ومظاهر العالم الخارجي فتبدأ تقرأ « دائرة .. مستودع .. طبيب اسنان ، أجل سأحدث دولي بكل شيء فهي لا تحب فرونسكي . سيكون مخجلا ومؤلما ولكني ساقص عليها كل شيء ، فهي تحبني وساتبع نصيحتها ولن استسلم له . آل فيليبوف ، سمائط ، يقال انهم يجلبون العجين الى بطرسبورغ ، ان حياة موسكو ممتازة » . ان توزيع تفكيرها وجنوحه وعدم تناسقه يعبر عن حالتها المتأزمة ، وعن اقتراب الكارثة التي تنتظرها ، فافكارها مشوشة ومرتبكة وسريعة التحول وتتسم بالفوضى والاضطراب والبلبلة وفقدان الهدف والاستعداد لارتكاب اية حماقة او عمل اهوج . وبعد ان فقدت حبه وتهاوت جميع الركائز التي بنت عليها حياتها بقي امامها الرجوع الى زوجها ولذا قررت مواصلة الصراع مع فرونسكي حتى النهاية مهما كلفها الامر . وكانت احيانا تفكر في الانتقام منه بعد ان فقدته وترى « ان الموت هو الوسيلة الوحيدة لاستعادة حبه لها ومعاقبته والانتصار عليه في هذا النضال الدائر بينهما والذي زرعه روح شرير في قلبها . وقد تصورت ذلك بجلاء تام . وطفقت تفكر بتلذذ كيف يتعذب ويتوب ويحفظ ذكراها بعد فوات الاوان » . وترمي آنا نفسها تحت عجلات القطار وهي في حمى افكار الانتقام من فرونسكي .

يضفي تولستوي في رواية « آنا كارنينا » صفة الحديث مع النفس لا على الناس فقط وانما يتعداها الى الحيوانات ، فهم مثل البشر يمكنهم ان يفكروا ويدركوا ويناقشوا ويفهموا ما يقال لهم وان يملكوا تصوراتهم الخاصة عن افعال اصحابهم . فتولستوي يرى ان كل ما في الطبيعة يملك حاسة الادراك والفهم ولا ينحصر ذلك بالانسان وحده . ومن هنا كانت تفكر كلبة ليفين المسماة « لاسكا » اثناء الصيد بافضل السبل لاقتناص الفريسة وتختلف مع ليفين في الاتجاه الذي يطلب اليها التحرك فيه (فكرت لاسكا « كيف يمكنني الذهاب ؟ والى اين اذهب ؟ فهنا اراهم احسن واذا تركت مكاني فستضيع علي الامور ولن اعرف امكنتهم » ولكن ليفين دفعها في الاثناء متمتما بانفعال « تحركي للاستكشاف ! تحركي » ففكرت قائلة « اذا كنت تريد هذا ، فسأفعل ولكنني لست مسؤولة عما سيحدث » وانطلقت بسرعة الى الامام) .

تعبر صورة البطل بما فيها من ابتسامات ونظرات وايماءات وحركات عن مشاعره وافكاره ، فبواسطتها يمكن ان نستشف اسرار نفسه وكوامنها . وقد اشار تولستوي في قصه « الصبا » الى اهمية لغة العيون والابتسامات ، وقال في ذلك « من لم يلحظ العلاقات الخفية الصامتة التي تظهر في ابتسامة خفيفة او حركة او نظرة يتبادلها الناس الذين يعيشون سوية كالاخوة والاصدقاء والزوج والزوجة والسيد والسيدة خاصة عندما لا يكونون صريحين ! كم من الامنيات المكتومة والافكار والخوف من الصراحة تعبر عنها نظرة عابرة عندما تتلاقى العيون خجلى مترددة ! » .

يطرق تولستوي سبلا مغايرة لاسلافه ومعاصريه في رسم الصورة الفنية كشانه في المجالات الاخرى . وتظهر اصالته وابداعه في اعطاء صور ديناميكية حية لشخصيات القصة تستمد شكلها من الحالة النفسية للبطل وتتلون بلون مزاجه . وفي ذلك يظهر اختلافه عن بوشكين وجوجول وليرمنتوف . فعلى الرغم من تباين اساليبهم في التقاط الصورة الفنية نجد ما يؤلف بينهم ويجمعهم باعطاء صورة ثابتة للبطل وعدم تحركها او عكسها لعالمه الداخلي في لحظات متباينة متناقضة . ولذلك لا تقوم الصورة الفنية عند تولستوي بتحديد مظهر البطل الخارجي واداء العلامات الفارقة والمميزة له فقط وانما تلعب دورا هاما في عكس تطور شخصيته وتسليط الاضواء على حياته وعلى اللحظات الحرجة التي تمر به والتغيرات التي يتعرض لها . اما الصورة الفوتوغرافية الثابتة فقد افاد منها في رسم معالم الشخصيات العابرة التي لا يتركها تمر تحت يراعه دون الامساك بالصفات العامة التي تتميز بها على الرغم من دورها القصير في الرواية .

تسهم الصورة الادبية في ابراز الخصائص الفردية التي يتسم بها البطل وفي تبيان خلائقه وشمائله وشخصيته المتميزة وطبائعه . فتعبر الابتسامة او النظرة احيانا عن طيبة البطل وعن جمال خلائقه ورقته ولطفه او العكس . فعيون الاميره ماري الشعاعية تعكس طيبتها وسموها الروحي والاخلاقي وحياءها وتضفي على وجهها الهادىء مسحة من الجمال والاشراق . ويتجسد لطف بيير وصدقه وطيب خلقه وصفاء روحه في ابتسامته الوديعة الخيرة .

يغني تولستوي صورة البطل تدريجيا باضافات مستمرة وتفاصيل متباينة بحيث يمكنها ان تستوعب مختلف شمائل البطل وتبين حالته في ظروف متباينة في العائلة وبين الاصدقاء وفي الحرب وفي افراحه واتراحه ولهوه وحزنه . فاول ما يعرفنا تولستوي على ناتاشا بطلة « الحرب والسلام » اثناء لعبها ومرحها وركضها مؤكدا الصفة الرئيسية التي تميز شخصيتها وهي حيويتها وفيض قوى الحياة في عروقها وتدفقها بفزارة ثم يتوسع اطار صورة ناتاشا تمشيا مع نمو وتكامل شخصيتها ويتضمن العديد من التفاصيل التي تبين طبيعتها الديناميكية .

يوجه تولستوي اهتمامه عند رسم صورة البطل الى تعابير الوجه والعيون ونوعية الابتسامة او الحركة ، انه لا يعنى بلون العيون وتقاطيع الوجه الا بالقدر الذي يظهر الصفة البارزة في البطل ، فعيون ناتاشا السود الواسعة تعكس حيويتها ونضارتها وخفتها ولذلك نلمس تكرارها مرارا . ولاحظ العديد من النقاد هذا الجانب من الصورة الادبية عند تولستوي ويشير احدهم قائلا : « يعتبر تولستوي بحق سيد اللغة في حركات جسم الانسان الذي يملك قوة التعبير اكثر من الكلمات . وليس المهم ما يتكلم ابطال تولستوي وانما طريقة الحركة والنظرات وكيف تعبر

وجوههم واجسامهم عن افكارهم ومشاعرهم » (٧) ولذلك نلمس عند تولستوي ترجمة مضمون الابتسامة او النظرة وتفسير محتواها وكشفها الاحاسيس الحقيقية عند الانسان التي يحاول اخفاءها وعدم البوح بها ولكن نظرة او التفاتة منه يمكنها ان تفصح عن دخيلة نفسه .

يخط يراع تولستوي لوحة حية ديناميكية للطبيعة في حركتها الابدية وتجددها المتواصل وانبعاثها المستمر . فعالم الطبيعة نموذج للحياة المتفجرة المنسابة دون توقف او انقطاع ، وكل ما فيها حقيقي وصادق وغير مصطنع . ولذلك تغدو الطبيعة ملاذا للانسان في بحثه عن التوافق والخير وفي مثابرته على التخلص من الشوائب الخلقية والاوجاع النفسية وفي سعيه نحو اصلاح ذاته . فالطبيعة بتجسيدها للنشاط والقوة والتناسق توحي للانسان افكارا سامية ومثلا عالية وتخلع عليه روحا من الامل والسرور والتفاؤل والثقة وتشفيه من اليأس والتشاؤم والاندحار . ومن هنا نلاحظ ان موضوع الطبيعة ذو صلة وثيقة بالانسان ، فهو مرتبط بمشكلة البطل وارائه الفلسفية وابحاثه الفكرية وتوقه لتحسين ذاته وهمومه اليومية وتفتيشه عن الخير وحبه للجمال . كل هذا يجد صداه في الطبيعة اذا وجد الانسان نفسه بين احضانها ، عندئذ تختلط احلامه وآلامه بها ويتجاوب معها ثم يمتزجان معا . ويفصح تولستوي عن رأيه بالطبيعة والعلاقة القائمة بينها وبين الانسان في يومياته قائلا : « أحب الطبيعة عندما تحيطني من كل الجهات وعندما تترامى بعيدا نحو الافق اللامتناهي وعندما تحتويني ويغمرني هواء حار يتصاعد نحو الاعالي اللامتناهية ، وعندما ينمو باستمرار ذلك العشب الريان الذي وطأته اثناء جلوسي عليه وهو يخلق الخضرة في المروج المترامية وعندما تلقي تلك الاوراق التي تلوح الرياح ظلالها على وجهي كاسية الغابة لونا ازرق واحبها عندما يكون الهواء الذي اتنفسه اشبه شيء بالسماء اللامتناهية الغامقة الزرقة وعندما لا اتمتع وابتهج وحدي بالطبيعة بل تطن وتضج الحشرات من حولي وتسير الابقار وتصدح العصافير » .

لا يضفي تولستوي على الطبيعة صبغة معينة ولا يكسوها لونا خاصا ، بل يرسمها على حقيقتها احيانا . انه يجهل في تصوير الجوانب الباهتة والساطعة ، الفوضى والانسجام ، الهدوء والغضب . ولذلك يلوح من صفحات رواياته حسن الربيع وطراوته واشراقه وقيظ الصيف وشحوب الخريف وعواصف الشتاء وبرده القارص وشاعرية الليالي القمراء وروعة المناظر الجبلية وجلالها وسحر النجوم ودفء الشمس وعبوس الغيوم وعويل الريح .

تتخلل مناظر الطبيعة كتابات تولستوي في السنوات الخمسين والستين بوفرة ، حيث يزور ابطاله الريف على الغالب للراحة والتمتع بجمال الطبيعة او لقضاء بعض الامور المتعلقة باعمالهم الزراعية . ولذلك تمتاز صور الطبيعة في هذه الفترة بمحتواها الغني وبتنوعها . اما في روايتي « آنا كارنينا » و « البعث » فالمناظر الطبيعية قليلة ومقتضبة واسلوب انعكاسها واحد . وتفسير ذلك ان ابطال هاتين الروايتين والقصص المتاخرة يعيشون بصورة رئيسية في المدينة بعيدا عن الريف .

تتلون الطبيعة في « آنا كارنينا » بلون فلسفي وتصبح احيانا رمزا للتغيرات التي تحدث بعد ذلك في مصائر ابطالها والتحولات التي تطرأ على حياته . وتسري قوانين الطبيعة وديالكتيكها على حياة الانسان فاحكام تطورهما واحدة . فكما يمكن ان تتبدل الطبيعة وترتدي اثوابا متعددة في فترات مختلفة فكذلك يمكن ان يحدث الشيء نفسه بالنسبة للانسان . ان ليفين يشعر بانبعاثه الروحي وتجدد قواه الفكرية والخلقية عند عثوره على اسس فلسفية جديدة . ويجد صدى التغير الذي طرأ عليه عند تسريحه نظره الى السماء فيقول « تطلعت قبل فترة الى السماء ولم أر فيها غير خطين ابيضين . اجل هكذا تغيرت دون شعوري ارائي في الحياة » . ويوحي تأمل ليفين للسماء واختفاء النجوم « وظهورها في اماكنها ثانية » ان هدوء العالم الداخلي للانسان يتهاوى على صخرة الواقع المر ولكن لا يتلاشى نهائيا فكما تختفي النجوم مؤقتا كذلك قوى الانسان الروحية تصاب بالوهن حينا وينتابها القلق ثم تنتعش مرة اخرى وتعود لحالتها الطبيعية . ان السماء لا تعبر عن وحدة الانسان والطبيعة وانما توضح حالة ليفين النفسية المضطربة ، وكونها ظاهرة مؤقتة وليست ملازمة له .

الطبيعة في كتابات تولستوي متقلبة ، تصطبغ بوضع الانسان النفسي في لحظة معينة فتكون ضاحكة مشرقة اذا كان سعيدا وكئيبة حزينة اذا كان يائسا وصافية نقية اذا كان يبحث عن الخير والنقاء . فهي ليست عالما قائما بذاته منفصلا عن عالم الانسان بل متفاعلا معه وممتزجا به .

يسعى تولستوي للالمام بحياة البطل من جميع اطرافها ويعرض نموها الطبيعي من الداخل منقبا وكاشفا المشاعب والاواصر بين عالم الوعي واللاوعي وانعكاسات احدهما على الآخر . ان الاحلام احد المجالات التي تنعكس فيها هموم البطل وخواطره والاوضاع العصيبة التي تمر به . ويتتبع تولستوي عملية ظهور مشاغل البطل في الاحلام والطرق الملتوية التي تتخذها والعلاقات الرمزية التي تتوارى وراءها وصيرورتها في القسم النهائي من الحلم وانتقال النائم من حالة اللاوعي الى الوعي .

كان تولستوي شغوفا منذ البداية بتحليل الاحلام وتفكيكها الى اجزائها المتكونة منها وتفسير معانيها وحل رموزها وفهم محتواها وتحديد مكانها واهميتها في استبطان افكار الانسان . وقد وجد تولستوي ان الحلم يتكون من الانطباعات الخارجية التي تتراكم في ذهن الانسان والاحداث اليومية التي تؤثر فيه تأثيرا مباشرا وغير مباشر . يتمثل العالم الباطني في مجموعة من الانطباعات والاحداث وتظهر في احلام النائم واحلام اليقظة ايضا . وتؤثر نوعية المؤثرات الخارجية على محتوى الحلم ومضمونه . فالاحلام في قصة « تاريخ اليوم الماضي » تحمل طابع بلبلة افكار البطل وفوضاها وتداخلها المشوش . وفي قصة « الطفولة » يعمق حلم نيقولينكا فهمنا لطفولته وحبه لوالدته . وفي قصة « الصبا » يبين حلم نيقولينكا تطور فهمه للواقع والناس المحيطين به .

تكتسب احلام آنا اهمية خاصة وذلك بمصاحبتها لمختلف مراحل حياتها العاطفية منذ اللحظة التي التقت فيها بفرونسكي حتى انتحارها . ويسود احلام « آنا » جو من التنبؤ بالاحداث المقبلة في حياتها ولا سيما الهامة منها . فلو امعنا النظر في الحلم الاول الذي رأته عندما كانت في القطار عائدة من موسكو الى بيتها في بطرسبورغ لوجدنا انه يسجل بداية التغير العاطفي الذي بدأ يشق طريقه الى الوجود والذي لا زال جنينا في دور التكوين . وسيؤدي انبثاق الحب في قلبها الى تدشين مرحلة جديدة عاصفة في حياتها . ولا تكاد آنا تدرك عواقب لقائها مع فرونسكي في موسكو وما سيترتب عليه من احداث جسام . وتتجلى احاسيس آنا الغامضة وعدم تكهنها بغداحة ما جرى لها في هذا الحلم الذي تمهد له ذكرياتها عن عائلتها وحياتها في بطرسبورغ .

يعكس الحلم الثاني الذي رأته بعد ان كاشفها زوجها بموضوع علاقتها بفرونسكي الصراع الداخلي الذي تعانيه والمأزق الحرج الذي تمر به وانعدام الامل بالخروج منه . انها تنتظر فرصة زوال اضطرابها وعودة الهدوء الى نفسها لكي تفكر بوضعها بمجمله تقول لنفسها « لا .. لا استطيع الآن التفكير بهذا ، وساتركه فيما بعد عندما اكون اهدأ . ولكن لم يفارقها اضطراب افكارها ابدا ، وكلما انطرحت امامها قضية ما فعلته وما هو مصيرها وما عليها ان تعمل يتملكها الرعب وتطرد هذه الاسئلة من ذهنها » . ان الحيرة والانزعاج يعودان الى المستقبل الضبابي الغامض لعلاقتها بفرونسكي والتفكير بوضعها يرهبها ويلقي ظلالا سودا على حياتها وترى كل شيء بمنظار قاتم . ان القسم الاخير في الحلم الذي يراودها كل يوم في نومها عبارة عن تنبؤ لما سيحدث لها عند الولادة حيث تصاب بالحمى وتصبح على قاب قوسين من الموت

7 — Nevill Forbes . Tolstoy : Oxford university Press . London . P 27 .

وتطلب من عشيقها وزوجها ان يتصالحا .

اما حلمها الثالث والاخير فيرمز الى نهاية حياتها الاليمة والى استسلامها لليأس . فهي ترى ان الموت وحده يضع حدا لعذابها الدائم ووضعها المستعصي على الحل . ويتكرر هذا الحلم باستمرار مؤكدا لها ان ستارا رهيبا سيسدل على حياتها . وقد وضح لها هذا ايضا بعد برود فرونسكي وعدم استطاعتها العودة الى زوجها والعيش كالسابق ولهذا كانت دائما في حالة تهيج وتوتر عصبي . يتراءى لآنا (فلاح ذو لحية صغيرة وتود ان تستيقظ من الرعب. واستيقظت من حلمها واخذت تسأل نفسها ما معنى هذا الحلم . وقال لها الفلاح « بالولادة ... بالولادة .. ستموتين بالولادة يا أماه . ») ! ان احلام آنا تأخذ شكل الكوابيس الرهيبة وتعكس ما تعانيه في حياتها اليومية من قلق وحيرة ومصير مجهول .

لا يقتصر تولستوي على تصوير العالم الداخلي للفرد فحسب ، بل يتعداه الى تصوير الحالات النفسية لمجموعات من الناس بكاملها . وتبرز براعة تولستوي في هذا المضمار خاصة في قصص سواستبول وفي رواية « الحرب والسلام » حيث يصور الجنود في انتظار الحرب والموت المرتبط بها . ففي ليلة معركة بورودينو وهي المعركة الحاسمة مع نابليون والتي قتل فيها خمسون الف جندي يصور تولستوي شجاعة الجنود وبسالتهم وعدم خوفهم من الموت وترقبه بهدوء بالغ كما لو كان من الاحداث اليومية العادية .

طرأ شيء من التغيير على اسلوب تولستوي بعد كتابة رواية « آنا كارنينا » نتيجة التحول الفكري الذي حدث في حياته في سنوات الثمانينات . فقد اخذ يدعو لاصلاح الانسان لذاته والى التمسك بالمبادىء الاخلاقية العالية . ولذلك اشتدت لهجة النقد لدرجة تتخذ احيانا شكل الهجاء في كتاباته واصبح نقد الاوضاع القائمة محور كتاباته وقويت الدعوة للاخلاق والتخلص من الاخطاء . وتتميز كتاباته الاخيرة ولا سيما رواية « البعث » ان الابطال تبدأ حياتهم بازمة فكرية او روحية يعون على اثرها عبث حياتهم الماضية . ففي رواية البعث تظهر الانارة الفكرية للبطل عند رؤية ضحيته والمأساة التي سببها لها . وتظهر عند بطل قصة « ايفان الييتش » عندما يشتد به المرض ويعرف مصيره المحتوم ولا يستطيع تسوية ما فات والبدء بحياة جديدة . وهكذا يتعاقب في انتاج تولستوي الاخير موضوعان ، النقد الشديد للحياة الماضية والحاضرة والانارة الروحية والفكرية للبطل التي تأتي اثر هزة او انقلاب فكري .

ان تولستوى لا يتخلى عن طريقته في تحليل النفس البشرية بل انها تلازم اسلوبه في هذه الفترة ايضا ويستخدمها لتصوير الصراعات النفسية الحادة التى تتملك البطل في نضاله بين ما فيه وما اعتاد عليه وبين ما يصبو اليه من قيم فكرية واخلاقية .

بغداد

حياة شرارة

لجميع مطبوعاتكم :

دار الندى للطباعة والنشر

بيروت ـ تلفون : ٢٣٠٥١٢

دار العودة - بيروت

آخر منشوراتها

ارم وطلب انتساب للحزب

الديوان الاول لشاعر المقاومة الفلسطينية

سميح القاسم

احزان افريقيا

مسرحية شعرية رائعة

للشاعر الكبير محمد الفيتوري

اغنية الى يافا

الديوان الثاني للشاعر المبدع

سيد احمد الحردلو

عن الادب والادب الشعبي الفلسطيني

دراسة طويلة عن ادب الارض المحتلة كتبها

شاعر المقاومة توفيق زياد

قرقاش

اول مسرحية شعرية

لشاعر المقاومة الفلسطينية سميح القاسم

معزوفة درويش متجول

ديوان للشاعر محمد الفيتوري

تطلب جميع هذه الكتب من دار العودة ـ بيروت

شارع مار منصور ، بناية بنك بيروت

والبلاد العربية ، تلفون ٢٣٦٤٠٧